مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي

الأستاذ: محمد عبد السلام الجفائري
مركز جهاد البيض - الجزائر العظمى

لقد شغلت قضية النهضة في العالم الإسلامي الحديث اهتمام المفكرين والمصلحين منذ جمال الدين الأفغاني (ت 1897 م) حتى الآن، وعاش هذا العالم قروناً طويلة في ليل التاريخ، وطال تخلفه وانعزاله، وكان من أبرز هؤلاء المصلحين والمفكرين: -

1 - محمد عبده (ت 1905 م).

2 - عبد الرحمن الكواكبي (ت 1902 م).

3 - محمد إقبال (ت 1938 م).

4 - عبد الحميد بن باديس (ت 1940 م).

5 - مالك بن نبي (ت 1973 م).

كان مالك بن نبي أحد المفكرين الذين شغلتهم قضية النهضة واستولت على تفكيرهم، بل لعله يعتبر أبرز المفكرين العرب الذين اهتموا بقضية الحضارة

بعد ابن خلدون (ت 1406 م) إذ ركز تفكيره حول هذه القضية من أجل تأصيلها ودراسة مشكلاتها وشروطها، مدركاً أن مشكلة كل شعب في جوهرها مشكلة حضارته.

لم يتعرف القراء في الوطن العربي على كتابات مالك بن نبي إلا منذ ثلاثين عاماً تقريباً، إذ صدرت الترجمة العربية لكتابه «مستقبل الإسلام» بقلم شعبان بركات[1] عن المكتبة العصرية (صيدا ـ بيروت) ولكن الترجمات العربية لكتب مالك بن نبي التي ألفها باللغة الفرنسية لم تصدر بصورة متتابعة إلا منذ عام 1957 م، عندما ظهر كتابه «شروط النهضة» في ذلك العام بترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ثم توالت مؤلفاته فيما بعد تحت عنوان ثابت هو «مشكلات الحضارة» وقد بلغت تسعة عشر كتاباً نذكر منها: ـ 1 ـ الظاهرة القرآنية، 2 ـ شروط النهضة، 3 ـ وجهة العالم الإسلامي. هذا بالإضافة إلى عدد من الكتب الأخرى ما تزال مخطوطة نذكر منها: ـ 1 ـ الجزء الثالث من مذكرات شاهد القرآن. 2 ـ مجالس دمشق (وهي محاضرات ألقاها في العاصمة السورية). 2 ـ الجزء الثاني من ميلاد مجتمع. 4 ـ مجالس تفكير (وتضم مجموعة من ندواته التي كان يعقدها في منزله أسبوعياً بعد تفرغه للعمل الفكري، في عام 1967 م).

ولد مالك في مدينة قسنطينة بالجزائر عام 1905 م أي في بداية القرن العشرين وأمضى مراحل دراسته الابتدائية والثانوية في تبسة وقسنطينة كما يروي في كتابه «مذكرات شاهد القرن» وعند اجتيازه المرحلة الثانية من دراسته غادر الجزائر إلى باريس حيث أتم دراسته وتخرج مهندساً كهربائياً عام 1935 م، وقد فوجىء عند ذلك بالأبواب توصد في وجهه من قبل السلطات الاستعمارية مما دفعه إلى التأمل والتفكير في أوضاع مجتمعه الذي كان يعيش تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي ومن هنا عرف طريقه إلى عالم الفكر والكتابة، وخرج من تأملاته ودراساته بأن المرحلة التي يمر بها المجتمع العربي الإسلامي «هي مرحلة

---

(1) ترجم عبد الصبور شاهين هذا الكتاب ترجمة ثانية بعنوان «وجهة العالم الإسلامي» كما قدم رمضان لاوند ترجمة ثالثة للكتاب نفسه تحت عنوان «نداء الإسلام».

مرضية تحتاج إلى دراسة نوع المرض»[2] الذي جاء عن طريق ضرب من الأفكار (فإذا تسنى لنا تخليص العالم الإسلامي من هذه الأفكار، استطعنا أن نضعه في مكانه اللائق به من التاريخ، إذ بذلك نحقق القاعدة الأساسية لبناء حضارة في هذا المجتمع)[3].

لقد كان يعتزم الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية ولكنه لم يقبل، مع أنه لم يجد أية صعوبة في امتحان القبول لأن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة لمسلم جزائري لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي[4].

ولمّا كانت دراسته لا تأخذ منه كل وقته، كان يصرف جزءاً كبيراً منه في القراءة، وقد أصبح مهتماً بالفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والعلوم، وأقبل على التحصيل العلمي بلهفة من كان يرى كل ما في وطنه الصغير وفي المجتمع الإسلامي من جهل وتخلف[5] وقد انتظمت حياته الأسرية إذ تزوج في عام 1931 م فتاة فرنسية هداها الله إلى الإسلام. وبدافع من اهتمامه بوطنه الكبير، ألقى محاضرة بنادي الطلبة في أواخر ديسمبر 1931 م بعنوان (لماذا نحن مسلمون)؟ رد فيها على الاتجاهات الواقعية التي كان يتصف بها الكثير من الطلبة، ودعا إلى اتباع الطريق الصحيح لبناء النهضة وهو طريق الواجب.

وبدأت متاعبه تزداد بعد هذه المحاضرة، إذ أخذت الشرطة تتعقبه وتلاحقه، بل عملت الدوائر الاستعمارية على نقل والده من تبسة إلى مكان آخر لتزيد من همومه.

ولكن هذه المتاعب لم تزده إلا تصلباً وتحدياً، بالرغم من أنه كان يشعر بشعور السمكة الصغيرة داخل الشبكة.

إن الاستعمار يحاربه ويضيق عليه الخناق لأنه عرف خطورة أفكاره وآرائه،

---

(2) مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد ص 8.
(3) المصدر السابق ص 8.
(4) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن ج 2.
(5) المصدر السابق ص 27.

فحاول أن يهاجر إلى الحجاز أو أفغانستان أو ألمانيا، ولكن ذلك لم يتم بطريقة جعلته يعتقد بأن الدوائر الاستعمارية كانت وراء ذلك. وقد حاول بعد دخول الألمان إلى باريس مع بعض المناضلين من الشباب تكوين حركة لتحرير شمال أفريقيا، وفي أغسطس 1944 م أدخل السجن وبقي فيه إلى مايو من العام التالي ثم أطلق سراحه لكنه أعيد إليه أثر الحوادث الدامية التي وقعت في الجزائر، وحاولت الدوائر الاستعمارية تحطيمه مادياً وأدبياً طوال أربعة عشر سنة مما جعله يفكر ويتساءل: ماذا يفعل؟ فدفعته هذه المعطيات إلى دراسة واقع أمته والتأمل في تاريخها مبدياً ملاحظاته ونتائج تأملاته في دراسات قيمة. وفي عام 1946 م بدأت كتبه تصدر وتتوالى في منظومة فكرية منسقة تربطها فكرة كلية واحدة هي فكرة الحضارة التي عمل في كتاباته جميعها على تأصيلها وترسيخها.

ولما قامت الثورة الجزائرية في أول نوفمبر 1954 م فكر في الهجرة من باريس للمساهمة في الثورة، وقد توجه فعلاً في عام 1956 م إلى الشرق وأدى فريضة الحج ثم استقر في القاهرة حيث كون حلقات وندوات جمعت صفوة من الشباب المسلم ينفخ فيها من روحه، ويشرح لها أفكاره لتكون جيلاً مؤمناً يلتزم برسالة الإسلام فهماً وعملاً، وأشرف على ترجمة كتبه إلى اللغة العربية كما قام بتأليف كتب أخرى كان أولها «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة» لقد كان صاحب رسالةٌ يؤمن بها ويدعو إليها، فعرفت له الثورة الجزائرية مكانته وقدرت دوره فجعلته بعد الاستقلال مديراً عاماً للتعليم العالي.

وفي عام 1967 م استقال من منصبه وتفرغ للعمل الفكري وتنظيم بعض الندوات حتى وفاته في يوم الأربعاء 4 من شوال 1393 هـ الموافق 1973/10/31 م بعد حياة حافلة بالدراسة والتأمل والنضال والإنتاج الفكري والدعوة إلى النهضة الحقيقية التي ترتكز على الإسلام باعتباره الدين القيم الذي وحد الأمة، وكون دولة، وأبدع حضارة. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عما قدم من فكر وجهد لأمته خير الجزاء.

يرتكز فكر مالك على أسس معينة وقواعد صارمة، لا تميل إلى الثرثرة أو الزخرفة اللفظية بل تميل إلى التحديد والوضوح، بدلاً من المحسنات البيانية، إذ

أن الثرثرة والكلمات الزائدة قد أضاعت المسلمين، وكان من المفروض أن يدركوا قيمة الزمن كعنصر من عناصر الحضارة، وأن يعرفوا قيمة الكلمة.

يعيش مالك فكرة كلية تشمل العالم الإسلامي، الذي يؤمن بأن لديه إمكانيات كبيرة يمكن أن تساهم في حل مشكلاته، والدفع به إلى مستوى الحضارة، بل المساهمة في تقدم العالم.

إن المحور الذي تدور حوله أفكار مالك هي مشكلات الحضارة ولذلك نجد كتبه جميعها تقريباً قد صدرت تحت عنوان ثابت هو مشكلات الحضارة وتميز منهجه بالمنطق والتأمل العميق والمقدرة على التحليل، ولعل تكوينه الرياضي والعلمي ساعده على ذلك، كما كان فكره يتسم بالحيوية والتركيز والفعالية، إذ أنه لا يريد أن يقول كلاماً مجرداً، بل يريد أن يفكر تفكيراً مؤثراً، ويقول كلاماً منطقياً يمكن أن يتحول ـ بالإرادة ـ إلى عمل ونشاط إذ ليس المهم عنده كثرة المعلومات والمعارف، ولكن المهم هو «تنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة»[6] وهو يطرح الإسلام كملهم لقيمنا وقادر على استعادة دور الإنسان مبرءاً من ثقل الحضارة الإمبراطورية وهو يرى أن الإسلام لا يقدم إلى العالم ككتاب، وإنما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير الإنسانية)[7] كما يرى من واجب المثقف أن يجري ترتيباً ضرورياً لرسالته في المجتمع، إذ لا بد من بناء الإنسان قبل بناء الآلة، حتى لا نقع في استحالة الوصول إلى الغاية.

وصفه صديقه الدكتور عبد العزيز الخالدي بأنه «رجل شعر في حياته الخاصة بمعنى الإنسان في صورتيه الخلقية والاجتماعية»[8].

وقال عنه محمد الميلي أنه يستنتج في كتاباته «أن خلاص العالم الإسلامي يتمثل في تطويع تكنيك الغرب لروح الإسلام»[9].

---

(6) عمر كامل مسقاوي: نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي، ص 26.
(7) المصدر السابق ص 47.
(8) أنظر مقدمة كتاب «شروط النهضة» لمالك بن نبي.
(9) مجلة المستقبل العربي العدد السادس والأربعون، يناير 1982 م ص 56.

وقال عنه أنور الجندي «فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم من القرآن والسنة والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم، وبين علم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية»[10].

وقال عنه محمد المبارك: «أنا لا أقول أنه (ابن نبي) ولكني أقول أنه ينهل من نفحات النبوة وينابيع الحقيقة الخالدة»[11].

يتميز منهج مالك بمنطقية صارمة تبدأ بالأعم فالأقل عموماً حتى تصل إلى الأخص أذ يبدأ بحثه بدوائر كبيرة، ثم يرسم مجموعة من الدوائر أصغر فأصغر[12] ونضرب مثلاً على ذلك بطريقته في إعداد كتابه (الظاهرة القرآنية).

لقد بدأ كتابه بدراسة الظاهرة الدينية ككل، ثم تبعها بدراسة عن الحركة النبوية، وبحث عن أصول الإسلام، وحديث عن حياة الرسول الكريم ﷺ في مرحلتيها المكية والمدنية ثم أوضح كيفية نزول الوحي، واقتناع النبي، ومقام الذات المحمدية في ظاهرة الوحي، ثم الرسالة، والخصائص الظاهرية للوحي، وفي الفصل الأخير عرض لموضوعات ومواقف قرآنية.

قدم مالك بن نبي العديد من الكتب القيمة التي تدل على ثقافة واسعة ومنهجية وقدرة على التحليل كما يتميز بطابع دقيق في تنظيم الأفكار واختيار الكلمات، وهو يعيش مشكلة كلية تغطي العالم الإسلامي كله إلا أنه شديد الإيمان بهذا العالم لما ينطوي عليه من إمكانيات وقدرات ورسالة حضارية تنتظر رجالاً مؤمنين يعملون على استئناف دورة حضارية جديدة.

لقد عاشت فكرة «الحضارة» في عقله ووجدانه، وشغلت تفكيره في كل كتاباته إلى درجة نستطيع أن نقول معها أن الفكر الإسلامي المعاصر لم يشهد

---

(10) أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا، ص 64.

(11) أنظر مقدمة كتاب «وجهة العالم الإسلامي» لمالك بن نبي.

(12) عبد الصبور شاهين: المفكر المسلم العربي مالك بن نبي، مجلة الفكر الإسلامي، العدد العاشر 1971 م ص 86.

تقريباً مفكراً شغلته قضية الحضارة مثل مالك الذي يعتبر شخصية فكرية خصبة جديرة بالدراسة وهو المفكر الذي اهتم بالجانب الحضاري وفلسفة التاريخ والاجتماع وشغلته مشكلات أمته فعالجها بروح موضوعية. ونظراً إلى أن من المتعذر على الباحث أن يقدم في حيز محدود دراسة شاملة مفصلة عن حياة هذا المفكر الكبير وآثاره الفكرية، رأيت أن أقصر هذا البحث على توضيح عدد من المفاهيم الأساسية في فكر مالك بن نبي، لعله يسهم في إضاءة جزئية لأفكار رجل لم يعش بعيداً عن مجتمعه ومشكلاته وآماله، ولم يكن مردداً لفلسفة معينة، ولا تابعاً لمذهب غربي أو شرقي، بل مؤمناً برسالة الاسلام الحضارية.

مالك بن نبي وحركة النهضة:

يعتبر مالك بن نبي صوت جمال الدين الأفغاني أول صوت يرتفع بعد قرون الظلام، ليوقظ العالم الإسلامي ويبث فيه روح النهضة، وبذلك كان له الفضل الأول في يقظة العالم الإسلامي في العصر الحديث وقد وصل تأثيره إلى جميع الأقطار الإسلامية ومن بينها الجزائر.

ويقدر مالك جهد محمد عبده الذي قدم لنا أول عمل فكري جيد بعد ابن خلدون تمثل في كتابه «رسالة التوحيد»، وبذل جهداً كبيراً في سبيل تنوير الأذهان ونشر الثقافة.

لقد تناول كل من الأفغاني ومحمد عبده قضية النهضة من زاوية مختلفة، إذ تناولها جمال الدين من الزاوية السياسية بينما نظر إليها الشيخ محمد عبده من الزاوية التعليمية، وقد نادى بإصلاح علم الكلام، ولكن مالكاً يرى أن المشكلة ليست بهذه الصورة.

يرى مالك أن حركة النهضة الحديثة ـ بالرغم من فضلها في تبديد الظلام الذي كان يسود العالم الإسلامي ـ قد اهتمت بإصلاح العلم، ولكنها لم تهتم بالتغيير النفسي الاجتماعي إلا أنه يستثنى من ذلك حركة الإصلاح في الجزائر بفضل شخصية عبد الحميد بن باديس (الذي قدر لإشعاعه أن يبلغ أعماق

الضمير الشعبي)[13].

وقد كانت حركة العلماء المسلمين الجزائرين هي أقرب الحركات الإصلاحية إلى النفوس، وأن ابن باديس هو الذي أدخل الجزائر في إطار الحركة الإسلامية العامة، إذ أنه تأثر بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا.

لقد تأثر مالك بأفكار الذين سبقوه من رجال النهضة فأخذ من جمال الدين ثورته على الجمود والاستعمار اللذين كانا يسيطران على الأقطار الإسلامية، ولكنه لا يؤمن بأن الاستعمار وحده هو سبب تخلف المسلمين، بل أن هناك عاملاً آخر نسيه المسلمون، وكان من المفروض أن ينتبهوا إليه هو «عامل القابلية للاستعمار» وشارك محمد عبده في اهتمامه بالتربية والتعليم، لأن الثقافة هي أساس النهضة، ولكن مالكاً لا ينظر إلى الثقافة على أنها تكديس للمعارف والمعلومات بل على أنها نظرية في السلوك.

ويتفق مالك مع محمد إقبال في دعوته إلى تميز المسلم عن الأوروبي المعاصر، ويرى في هذا التميز الشرط النفسي اللازم الذي يعيد للمسلم ثقته بنفسه، ويحرره من عقدة الشعور بالنقص.

يؤمن مالك بأن حركة الإصلاح الحديثة قد استطاعت أن تزيل الركود الذي ساد العالم الإسلامي طيلة خمسة قرون، حين جعلت المسلم يشعر بمأساته ويلتمس طريقه نحو النهضة، ولكن هذه الحركة قد تعثرت لأنها لم تحدد غايتها، والمشكلات الاجتماعية التي تواجهها، والوسائل التي يجب أن تتبعها، إذ يرى أن شخصيات المصلحين لأسباب تخلف العالم الإسلامي على أهميتها لم تكن موفقة تماماً لأن معظمها كان يتناول الأعراض، وقد أدى ذلك إلى مرور وقت طويل، والأطباء يعالجون الأعراض لا المرض، وأن المشكلة ـ عند مالك ـ هي مشكلة المجتمع الإسلامي الذي بقي خارج التاريخ مدة طويلة، يشكو المرض ولا يجد الدواء المناسب وينشد النهضة وهو مكبل بقيود نفسية وفكرية واجتماعية.

لقد كان الأطباء يقفون عند الأعراض، ولم ينتهوا إلى حقيقة المرض ومن

(13) مالك بن نبي: (وجهة العالم الإسلامي) ص 175.

هنا أصبح كل دواء عقيماً، والسبب في ذلك ـ كما يرى مالك ـ يكمن في أن مقياس الحضارة قد قلب رأساً على عقب، إذ أن المقياس العام هو أن تلد الحضارة منتجاتها لا العكس[14].

ومن هنا يرى مالك أن الاتجاه الصحيح للخروج من الأزمة هو الاتجاه نحو بناء الحضارة وفقاً لشروطها، وذلك يقتضي وعياً كاملاً بالتاريخ باعتباره «عملية اجتماعية محددة الأسباب والنتائج مرتبطة بمصير الإنسان»[15] وفهماً للسنن النفسية والاجتماعية، كما يجب على الحركة الإصلاحية أن تهتم بتغيير النفس، وأن تترجم فكرة الوظيفة الاجتماعية إلى لغة الواقع، ولا تقتصر على إثارة المشكلة من جانبها العقلي فقط وذلك يقتضي منها أن تواجه مشكلة الثقافة في أصولها.

الاستعمار والقابلية للاستعمار:

عندما جاءت أوروبا إلى العالم الإسلامي لم تأت بهدف تحضيره وتمدينه بل كانت تهدف إلى استعماره واستغلاله، ومن هنا كانت نظرتها إلى المسلم نظرة إلى «موضوع» يمكن استغلاله وليس إلى «ذات» مفكرة يمكن احترامها وتقديرها، وبالتالي فإن الاستعمار يحاول ـ بطريقة منهجية ـ أن يطمس كل محاولة جادة للبعث والنهضة، ولكنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً إلا إذا كانت الشعوب المستعمرة ذات قابلية للاستعمار.

ويرى مالك أن الاستعمار ليس هو السبب الوحيد لعجز الناس وخمولهم بل أنه قد يكون ـ إذا نظرنا إليه كعلماء اجتماع ـ «عاملاً يكتسي طابع الضرورة التاريخية ويساعد الشعوب المستعمرة على التغلب على قابليتها له».

وقد انتقد بعض الباحثين مالكاً في رأيه هذا لأنهم رأوا فيه القول بمجتمعات قابلة للاستعمار وأخرى غير قابلة له، وبذلك يقع في أيديولوجية عنصرية[16].

---

(14) مالك بن نبي: شروط النهضة ص 55.

(15) مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد ص 121.

(16) عبد الكبير الخطبي: النقد المزدوج ص 202.

إن مالكاً لا يؤمن بذلك بالتأكيد، ولكنه يريد أن ينبه الشعوب المستعمرة إلى عدم قبول الاستعمار والرضوخ له، وإلى ضرورة التفتيش عن عيوبها الداخلية ونقاط الضعف فيها، حتى لا تجعل من الاستعمار (مشجباً) تعلق عليه كل الأخطاء وظواهر الكسل والتخلف.

والاستعمار إذ يحاول أن يحطم طاقات الإنسان المستعمر، قد يكون له جانب إيجابي بدون إرادة منه، إذ يوقظ في الشعوب المستعمرة روح التحدي، ويحركها لتتغلب على واقعها السيء وتنتصر في النهاية لأن الواقع الاستعماري لن يستمر إلى الأبد «إذ أن قوى الإنسان الجوهرية تتغلب أخيراً على جميع ضروب التناقض»[17].

إن ذلك لا يعني أن الاستعمار يهدف إلى تحريك الشعوب ونهضتها، ولكنه يغير ظروف الشعوب المستعمرة، وبالتالي يدفع هذه الشعوب إلى تغيير واقعها، ولذلك فإن من الواجب أن ندرس مشكلة التخلف من زاويتي الاستعمار والقابلية للاستعمار.

إن مالكاً يرى أن الاستعمار نتيجة وليس سبباً، ولذلك فإنه لكي يتحرر من «أثر» هو الاستعمار يجب أن نتحرر أولاً من سببه وهو القابلية للاستعمار، وأن على المستعمر أن يفكر في استخدام الوسائل المتاحة له بطريقة مؤثرة للتغلب على مشاكله، وأن للاستعمار نصيبه في أسباب التأخر، كما أن للقابلية للاستعمار نصيبها كذلك، ولذلك نجد مالكاً يوزع المسؤولية على هذين العاملين توزيعاً منصفاً فيجعل «الدهاء والمكر والخداع والنهم والشراهة من نصيب الاستعمار» بينما يجعل «الدناءة والسفالة والنجاسة والخبث والخيانة من نصيب القابلية للاستعمار»[18].

إن الاستعمار يعمل على حرمان المستعمر من امتلاك الوسائل الضرورية لنموه وتقدمه ولكنه لا يستطيع أن يمنعه من استخدام الإمكانيات المتاحة له

---

(17) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص 100.

(18) مالك بن نبي: بين الرشاد والتية ص 174/173.

والقيام بمحاولة رفع مستواه أو استغلال وقته بالطريقة المناسبة، بدلاً من الاستسلام والخنوع لمشاريع الاستعمار والعمل على نجاحها، إن المستعمر يستطيع أن يغير من وسائله، وأن يستغل إمكانياته المتاحة، متى تغيرت نفسه، وأدرك إنسانيته وشعر بمسؤوليته.

إن الاستعمار يفرض على حياة المستعمر عاملاً سلبياً نسميه (العامل الاستعماري) إذ يضع الطريقة المناسبة لاستمرار الاستعمار، ويرسم سياسة مدروسة تكفل له وجود مستعمرين طبيعيين ضيع فيهم الجوهر وزرع فيهم الشعور بالنقص، وحطم قواهم الكامنة فيهم وقلل من قيمتهم، ومنع المستعمر من الأشياء الضرورية التي تغذي جسمه وتنمي فكره، ووضع في وجهه السدود والموانع حتى يفقد إنسانيته، من خلال شبكة دقيقة وأساليب مدروسة تسلبه كل وسيلة لانتظام حياته وتقدمها، وتبث حوله الأفكار المسمومة التي تقلل من قيمته وتعرقل مصالحه، بخبث ودهاء، وبذلك لا يستطيع الإنسان المستعمر أن يقوم بأعمال إلاّ في الحدود التي يسمح بها المستعمر ويعيش و «كأن يداً خفية، وتارة مرئية، شتت معالم طريقه، وتقصي باستمرار أمامه الغلامة التي تحدد هدفه، فلا يدركه أبداً»[19].

ولكن ذلك لا يعني أن الاستعمار وحده هو المسؤول عن تخلف الشعوب المستعمرة، ومن الواجب أن ندرس ظاهرة الاستعمار دراسة علمية، إن الاستعمار يعتبر نكسة في التاريخ البشري وإن أصوله ترجع إلى روما حيث سجلت الدولة الرومانية طابعها الاستعماري، الذي كان يهدف إلى إخضاع الشعوب وذهاب ثرواتها، ولكن الاستعمار، مع ذلك وبدون إرادة منه أوقظ الشعوب المستعمرة «بعد أن خلع عليها بابها، وزرع دارها، وأخذ منها حريتها وسيادتها وكرامتها»[20] ولكن الاستعمار لا يمكن أن ينجح في مهمته إلا إذا وجد لدينا قبولاً واستعداداً للرضوخ له، ولذلك فإن القضية عند مالك ـ «منوطة أولاً بتخلصنا مما يستغله

---

(19) مالك بن نبي: شروط النهضة ص 147.

(20) المصدر السابق ص 149.

الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته من حيث نشعر أو لا نشعر»[21] ورفضنا لأساليبه.

لقد درس الاستعمار نفسياتنا دراسة عميقة، وأدرك مواطن الضعف فيها، فسخرنا لما يريد، ولذلك فإنه لا يمكن للشعوب المستعمرة أن تستقل، والجماعات المضطهدة أن تتحرر، إلا إذا تحرر وجدانها من الداخل، وقد قال أحد المصلحين: «أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم».

مفهوم الحضارة:

يختلف الباحثون في تحديد معنى «الثقافة» و «الحضارة» ويحاول بعضهم إيجاد فواصل بين مدلولي الكلمتين، بحيث تكون الأولى خاصة بالأمور المعنوية، والثانية بالأمور المادية، ويرى البعض أن العلاقة بين الحضارة والثقافة هي علاقة تلازم، ولا حرج في تناوب الكلمتين بحيث يقال: «إن حضارة أي مجتمع أو ثقافته إنما تتمثل في القيم والمعاني والنظم التي تنطوي عليها حياته»[22] إذ أن الحضارة إذا كانت هي التطبيق المادي للتراث الثقافي فهي من جهة أخرى وليدة هذا التراث في البيئة التي تزدهر فيها، ولا نريد هنا أن ندخل في متاهة التعريفات المتباينة لهذين المصطلحين.

ويعرف مالك بن نبي الحضارة «بأنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات اللازمة لتقدمه»[23] إذ لا يستطيع الفرد أن يحقق ما تصبو إليه نفسه إلا بفضل إرادة وقدرة تنبعان من المجتمع الذي يعيش فيه. وهذه الإرادة والقدرة تعطيان لوظيفة الحضارة موضوعية وفعالية. إن الفعالية والحيوية تميزان المجتمع عندما يبدأ سيره في طريق الحضارة، وتميز بينه وبين مجتمع آخر يعيش في مرحلة ما قبل التحضر أو ما بعد التحضر.

---

(21) المصدر السابق ص 154.

(22) عمر عودة الخطيب: لوحات في الثقافة الإسلامية ص 44.

(23) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 50.

إن اهتمام مالك بن نبي بالحضارة ليس من قبيل اهتمام المختص في علم الإنسان الذي يمثل لديه كل شكل من أشكال التنظيم لحياة البشرية نوعاً معيناً من الحضارة، إن هذا المفهوم مفهوم واسع لا يتمشى مع الإطار الذي يهتم به، لأنه يهدف إلى تحريك العالم الإسلامي حتى يتخلص من رواسبه ومعوقاته، وينطلق بإرادة وفعالية نحو استعادة مكانته في التاريخ والحياة، وذلك بأن يحقق نظاماً اجتماعياً متماسكاً وفقاً لعقيدته ومنهجه. إن المسألة لا تعني لدى مالك محاولة لاكتشاف حقائق جديدة تتعلق بعلم الإنسان ولكنها تعني لديه تحديد الطرق المؤدية إلى الهدف المنشود، دون اغفال للواقع، والوضعية الراهنة، ووفق شروط معينة، حتى يكون عملنا خاضعاً لهدف واضح واتجاه محدد، وإدراك للوسائل الفعالة، ومن هنا فإن الحضارة هي التي تمنح المجتمع الإرادة التي تميزه كمجتمع نام، والقدرة على حل جميع المشاكل التي تواجهه بطريقة فعالة وأسلوب إيجابي.

إن الحضارة هي التي تشكل إرادة وقدرة المجتمع النامي، ومن هنا يجب أن تحدد الحضارة من وجهة نظر وظيفية، فنقول عنها بأنها «مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه»[24].

وإذا كانت الإرادة ملازمة لجوهر الحضارة، فإن القدرة تتشكل بصورة تدريجية في ضوء الأفكار التي اعتنقها المجتمع، وذلك بتحقيق القيم والمثل في الواقع الاجتماعي، وإنتاج المنتجات إذ أن الحضارة هي التي تصنع منتجاتها وليس العكس.

إن الحضارة لا تعني كل شكل من أشكال التنظيم للمجتمعات البشرية، ولكنها شكل نوعي خاص يحمل سمات معينة يهدف إلى وظيفة معينة بإرادة وقدرة تعملان على تركيب أصيل للعناصر الثلاثة: ـ الإنسان، والتراب، والزمن في ضوء فكرة دينية تحرك الإنسان فتدفع به إلى العمل الجاد الهادف والنشاط الفعال.

(24) مالك بن نبي: آفاق جزائرية ص 38.

إن كل حضارة تصنع نماذج اجتماعية ذات طابع معين تتعاقب على مر الأجيال، وتحمل ملامح خاصة، وهي من القيم لا تباع ولا تشتري، ولا يستطيع أحد من باعة المخلفات أن يبيع لنا منها ذرة واحدة، لأن الحضارة ليست شيئاً يأتي به سائح في حقيبته، ولا يكمن في نية المستعمر وتعامله مع البلاد المستعمرة، ولكنها تتكون نتيجة الجهد الذي يبذله كل يوم الشعب الذي يريد أن يبني الحضارة، (أي عندما يضع في كل تفصيل حياته مضمونه الأخلاقي والجمالي والعملي حتى يكون هذا التفصيل كأنه خطوة نحو التقدم)[25].

إن الحضارة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس من التعادل بين الكم والكيف، وبين الروح والمادة بين الغاية والسبب فمهما اختل هذا التعادل في جانب أو في آخر كانت السقطة رهيبة قاصمة»[26] مؤكداً بأن الإنسان هو الشرط الأول لكل حضارة.

مفهوم الثقافة:

يعرف المختصون في الغرب الثقافة بأنها تراث الإنسانيات الإغريقية اللاتينية، لأن الثقافة في رأيهم هي فلسفة الإنسان، وتعرف الثقافة في البلاد التي يسودها الفكر الماركسي بأنها ذات علاقة وظيفية بالجماعة، أي أن الثقافة هي فلسفة المجتمع، ولكن مالكاً يربط بين الثقافة والحضارة ويرى في الأولى أنها نظرية في السلوك أكثر منها في المعرفة، وبالتالي فإن الثقافة عنده تعرف بصورة عملية بأنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه»[27]. وهي بالتالي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته وبمعنى آخر أن الثقافة جوّ يتكون من ألوان وأنغام، وعادات وتقاليد وأشكال وأوزان وحركات تطبع على حياة الإنسان اتجاهاً وأسلوباً خاصاً، وقد حلل مركب الثقافة إلى عناصر أربعة هي: ـ

(25) مالك بن نبي: في مهب المعركة ص 162.
(26) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص 189.
(27) مالك بن نبي: شروط النهضة ص 79.

1 ـ المبدأ الأخلاقي.

2 ـ الذوق الجمالي.

3 ـ المنطق العملي.

4 ـ الصناعة أو التوجيه الفني.

إن اهتمام مالك بالأخلاق ينبع من الناحية الاجتماعية والتربوية، إذ نراه يهتم بقوة التماسك التي تربط بين أفراد المجتمع الواحد، وتكون صلات اجتماعية فيما بينهم، تربطهم بروح واحدة. هذه الروح هي المبدأ الأخلاقي الذي يعتبر الأساس الذي ترتكز عليه ثقافة المجتمع ولا بد في المجتمع المتقدم من ذوق جمالي، إذ أن الإطار الحضاري بكل محتوياته يتصل بالذوق الجمالي بل أن الجمال هو الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا، كما يجب أن نحرص عليه في شوارعنا وبيوتنا، لأن «الجمال هو وجه الوطن في العالم. فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بنفس الاحترام»[28].

أما المنطق العملي فهو المنطق الذي ينظم حركات الإنسان ويطبعها بطابع خاص، يعطيها القدرة على أن تكون ذات فاعلية، إذ يرتبط العمل بوسائله ومقاصده، ويحدد أشكال النشاط العام باستخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة، وهي أخيراً فن تطبيقي يناسب كل مجتمع[29].

يلح مالك بن نبي على ضرورة التمييز بين الثقافة والعلم، ويحذر من الخلط الشائع في تصورهما والتعبير عنهما، فدعا إلى الربط الوثيق بين الثقافة والحضارة، كما دعا إلى ضرورة تحديد أوضاعنا في صدد بناء نهضتنا ـ بطريقتين: ـ

الأولى سلبية تفصلنا من رواسب الماضي.

الثانية إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل.

---

(28) مالك بن نبي: شروط النهضة ص 92.

(29) المصدر السابق ص 121.

وساق على ذلك أمثلة تؤكد التلازم بين الثقافة والحضارة وضرورة الربط بينهما، إذ يقول: (ولعل هذه النظرية ـ (أي ضرورة تحديد الأوضاع بطريقتين سلبية وإيجابية) ـ قد لوحظ أثرها في الثقافة الغربية في عهد نهضتنا، إذ كان (توماس الاكويني) ينقيها ولو عن غير قصد منه لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربية، وما كانت ثورته ضد ابن رشد وضد القديس أوغسطين إلا مظهراً للتحديد السلبي، حتى يستطيع تصفية الثقافة الغربية مما كان يراه فكراً إسلامياً، أو ميراثاً ميتافيزيقيا للكنيسة البيزنطية، وأتى بعده (ديكارت) بالتحديد الإيجابي الذي رسم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي، الذي يبني على منهج الشك واليقين»[30] ولقد قامت الحضارة الإسلامية بعملية التحديد هذه من ناحيتها السلبية والإيجابية مرة واحدة، حيث نزل القرآن الكريم بنفي الأفكار الجاهلية، ورسم طريق الأفكار الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية. هذا ما يجب أن تعمله الآن حركة النهضة الحديثة ليكون اتجاهها سليماً. إن التحديد الإيجابي «للثقافة» يهدف إلى تحديد محتواها من العناصر الجوهرية اللازمة لبناء الثقافة وهي: ـ 1 ـ الدستور الأخلاقي 2 ـ الذوق الجمالي 3 ـ المنطق العملي 4 ـ الصناعة «بتعبير ابن خلدون»، أو التوجيه الفني.

ومن هنا فإن الثقافة ليست علماً يتعلمه الإنسان، ولكنها محيط يعيش فيه وإطار يتحرك داخله وتتكون فيه خصائص المجتمع المتحضر وفقاً للأهداف العليا التي آمن بها هذا المجتمع، وهي الجسر الذي يعبره الناس إلى الرقي، والحاجز الذي يحفظ من السقوط.

كما تعتبر الثقافة ـ من وجهة نظر اجتماعية ـ هي حياة المجتمع، إذ بدونها يكون المجتمع ميتاً وهي ذات صلة وثيقة بالتاريخ والتربية إذ لا يمكن أن نتصور تاريخاً لأمة بدون ثقافة «فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه»[31] والثقافة هي الوسط الذي تتكون فيه خصائص المجتمع من عبقرية وتقاليد وأذواق

---

(30) المصدر السابق ص 121.

(31) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص 76.

وعـواطف «مشاعـر» وبعبارة جـامعة: هي كـل ما يعـطي الحضارة سمتهـا الخاصة[32].

مفهوم دورة الحضارة:

لقد اكتشف ابن خلدون فكرة التعاقب الدوري في الحضارة، أو الدورة الحضارية، وحدد أطوار الحضارة في المراحل التالية: ـ[33].

1 ـ طور البداوة.

2 ـ طور التحضر.

3 ـ طور التدهور.

كما يرى أن الترف هو مظهر الحضارة وغاية العمران، ولكنه المؤذن بنهايته أيضاً. وقد آمن مالك بن نبي ـ متأثراً بابن خلدون ـ بأن للتاريخ دورة وتسلسلا، وأن في دراستنا للتاريخ تتجلى لنا حقيقة جوهرية هي «دورة الحضارة» التي تتحدد وفق شروط نفسية وزمنية خاصة لمجتمع معين ثم تهاجر هذه الحضارة إلى مناطق أخرى في هجرة مستمرة وأن الحضارة تسير كما تسير الشمس إذ تشرق في أفق معين ثم تتحول إلى أفق آخر وأنه من المفيد أن ننظر هذه النظرة المتعمقة لندرك أن الحضارة تسير إلى حيث قدر الله لها أن تسير من دور إلى دور، وأن الزاد لهذه الحضارة يكمن في «المبدأ» الذي يكون أساساً للحضارة.

إن الحضارة في ـ رأي مالك ـ تنبعث بدافع العقيدة الدينية ـ، ولذلك فإن علينا أن نبحث في كل حضارة عن أصلها الديني، إذ أنها لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شريعة ومنهاجاً، أو هي ـ على الأقل ـ تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي، فكأنما قدر الله للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية»[34].

---

(32) المصدر السابق ص 77.

(33) أنظر: أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ ص 136.

(34) مالك بن نبي: شروط النهضة ص 57/55.

لقد انطلقت الحضارة الإسلامية منذ نزول الآية الكريمة ﴿إقرأ﴾ على رسول الله ﷺ في غار حراء، فكانت بداية المرحلة الأولى، وهي مرحلة الروح، التي استمرت إلى موقعة صفين في عام 38 للهجرة، ولقد كان لهذه الموقعة دور خطير إذ أخرجت هذه الحضارة من الطور السابق إلى طور جديد وهو طور العقل، انتشرت فيه الحضارة أفقياً من شاطىء الأطلسي إلى حدود الصين، بفضل ما لديها من طاقة روحية، وتلك هي مرحلة العقل، ثم بدأت تخلد إلى الأرض شيئاً فشيئاً، وفي هذه المرحلة لمعت أسماء كبيرة في عالم المعرفة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون، ثم بدأ منحنى السقوط لتدخل الحضارة الإسلامية في المرحلة الثالثة مرحلة الغريزة، حيث اهتز التوازن بين الروح والعقل ثم بدأ الخلل يصيب المجتمع وهو يتجه نحو الأفول، نتيجة للنقص الذي أصاب الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية[35] طبقاً لقانون الدورة الحضارية، وظهر مجتمع جديد يحمل خصائص واتجاهات معينة في عصر الانحطاط، «إذ لم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارية، بل أضحت عناصر خامدة ليس فيما بينها صلة مبدعة»[36].

تلك هي الأدوار العامة للحضارة (مرحلة الروح ـ مرحلة العقل ـ مرحلة الغريزة) التي تؤكدها التجارب التاريخية التي لم تشذ عنها حضارة واحدة، لذلك كان أفول حضارة معينة هو قانوناً يسري عليها جميعاً، ومن هنا فإن مشكلة الحضارة لا تخص الشعوب الإسلامية فقط، ولكنه تصيب الشعوب جميعاً، وعليها أن تدرك أن الحضارة تخضع لقوانين معينة، فإذا أدركت ذلك فإنها تستطيع أن تشق طريقها من جديد، ما دامت لديها فكرة دينية تؤلف بين العناصر الثلاثة: الإنسان، والتراب، والوقت، وتصنع حضارة، إذ أن هذه العناصر الثلاثة لا يمكن لأي شعب أن يتنازل عنها إلا إذا فقد جوهر حياته الاجتماعية.

يؤرخ مالك بن نبي سقوط الحضارة الإسلامية ودخولها في مرحلة الغريزة

---

(35) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 144.

(36) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص 31.

أنظر الصفحة التالية.

بوفاة ابن خلدون (ت 1406 م) وبعد سقوط دولة الموحدين في عام 1269/667 م الذي تم في وقت قريب من سقوط بغداد في /1258 م.

ولكن الدخول إلى مرحلة الغريزة لا يعني أن الإيمان قد فقد سيطرته أو وجوده في العالم الإسلامي خلال عصر الانحطاط ـ إذ أن الإيمان كان موجوداً على مستوى الأفراد ولكنه لم يكن له دور اجتماعي يهدف إلى ازدهار الحياة وتقدمها.

إن الإنسان ما بعد الموحدين فقد همته ومال إلى الجمود والتخلف، لأن التغير الذي حدث أصاب الإنسان في الصميم، وأصبح عاجزاً عن التمثل والإبداع، وبالتالي أصبح المجتمع يتسم بالعجز وعدم القدرة على مواجهة المشكلات، وسيظل كذلك ما دام لم يستطع أن يقوم بتصفية للأمراض التي ورثها منذ ستة قرون، وأن يقوم بتجديد كيان الإنسان وفقاً للتعاليم الإسلامية مستفيداً من مناهج العلم الحديثة، بما يحقق توازناً جديداً لحياته، وتركيباً جديداً لتاريخه، وذلك يتطلب أن تتسم ألوان النشاط الاجتماعي باليقظة والانتباه، والفهم للعوامل التي تجتاح حياتنا، وأسباب العطل التي تعرقل سيرنا.

إن العالم الإسلامي يحتاج إلى تصفية للأفكار السلبية التي انتهى دورها، واختيار دقيق للأفكار التي يقتبسها من الحضارة الغربية، لأن هذه الحضارة تحمل الكثير من الأفكار القاتلة وهو يحتاج إلى الربط الوثيق بين الفكر والعمل، إذ أن الانفصال بينهما ظاهرة ملموسة في الفكر الإسلامي الحديث، إذ نجد أي نشاط ضمن النشاط العام للنهضة مبتوراً من جانب أو آخر «فاما فكرة لا تتحقق، واما عمل لا يتصل بجهد فكري»[37].

مشكلات الحضارة:

لقد أصبح العالم الإسلامي ـ بعد سقوط دولة الموحدين ـ يواجه مشكلات متعددة، وأول خطوة علاجية تقتضي أن نقوم بترتيب هذه المشكلات ترتيباً منطقياً حتى نعطي لكل نوع منها قيمته الحقيقية دون الوقوع في ذهان السهولة أو ذهان

(37) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص 88.

الاستحالة، وبعبارة أخرى دون أن نستسهل الصعب أو نستصعب السهل.

ومن المهم أن يعرف المجتمع كيف يواجه مشكلاته، ويصنفها تصنيفاً سليماً، إذ أن الكثيرين لا يجيدون ذلك، إذ يضعون مثلاً عدداً من المشكلات التي تواجهنا تحت عنوان «الفقر» وعدداً آخر من المشكلات تحت عنوان «الجهل» وعدداً ثالثاً تحت عنوان «الاستعمار» ويقتنعون بهذه الصيغة السهلة التي توحي بالحلول البديهية. ولكننا عند التحليل نكتشف أن الحلول التي وضعت لهذه المشكلات حلول ضعيفة، لأننا لم ننجح في وضع المشكلات في إطارها الصحيح، ولم نتأمل جوهرها، ولم نبحث عن الأسباب الحقيقية لها.

وفي غياب هذه الصفة سيكون علاجنا لكثير من المشاكل غير مجد، لأنه سيظل مجرد حل نظري، يعتمد على استيراد المنتجات وتكديسها، وكان الأجدر بنا أن نتجه إلى الإنسان لنغيره إذ أنه «إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن المجتمع والتاريخ»[38].

وقد حدد مالك أسباب تعثر حركة النهضة الحديثة بالعوامل التالية: ـ

1 ـ عدم تشخيص غاية النهضة بصورة واضحة.

2 ـ عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصاً صحيحاً.

3 ـ عدم تحديد الوسائل تحديداً يناسب الغاية المنشودة والإمكانيات[39] وقد أدى عدم تحديد الغاية إلى التيه والضياع، مع التبذير في الوسائل لأن الحركة تصبح حركة تخضع للصدفة، وبالتالي لا تأتي بنتيجة في اتجاه معين وفي وقت معقول.

إن مشكلة كل شعب ـ عند مالك بن نبي ـ في جوهرها هي مشكلة حضارية ولا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يرتفع إلى مستوى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها»[40] لأن

(38) مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد ص 23/22.
(39) المصدر السابق ص 121.
(40) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي ص 31.

بناء الحضارة لا يتم عن طريق الصدفة بل يتطلب نظرة منهجية تعتمد على التحليل ومعرفة عوامل البناء.

وقد عرفنا فيما سبق أن الحضارة تتكون من عناصر ثلاثة: الإنسان، التراب، والوقت وهي الأساس لكل محاولة تهدف إلى بناء الحضارة أو إعادة بنائها، ولكن فعالية هذه العناصر لا يتم إلا عن طريق الفكرة الدينية التي تؤلف بينها وتصنع منها كتلة واحدة تسمى في التاريخ حضارة. وإن أول واجبات العالم الإسلامي عند مالك وهو يعيش أوضاعه المتخلفة، أن يقطع المسافة التي تفصله عن التقدم، عن طريق التخطيط المنظم الواعي الهادف إلى استغلال إمكانياته على أن يتم هذا التقدم على أساس من التعادل بين العلم والضمير، والروح والمادة، وأن يظل محافظاً على معنى القيمة الخلقية، متحللاً من الفوضى والأوهام، متحرراً من عقدتي الشعور بالاستحالة أو التساهل، مؤمناً بأن النهضة تبدأ بتغيير النفس ثم يشق طريقه على ضوء فكرته الدينية بأسلوب تربوي اجتماعي يستلهم قواعده من علوم التاريخ والنفس والمجتمع لتحقيق المثل الأعلى.

وإن الوسيلة إلى الحضارة ممكنة، ما دامت لدينا فكرة دينية تقوم بدور المركّب للعوامل الثلاثة (الإنسان والتراب والوقت) لتصنع منها حضارة، وفقاً للمبدأ القرآني الخالد ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾[41] ليواجه مشكلاته الرئيسية التي حددها مالك بن نبي في المشكلات التالية: ـ

1 ـ مشكلة الإنسان التي تتطلب تحديد الشروط اللازمة لتغييره حتى يكون منسجماً في سيره مع سنن التاريخ.

2 ـ مشكلة التراب التي تقتضي تحديد الشروط اللازمة لاستغلاله في عملية البناء الاجتماعي.

3 ـ «مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد»[42].

---

(41) سورة الرعد آية 11.

(42) مالك بن نبي: حديث في البناء الجديد ص 140.

ولا شك أن مشكلة الإنسان تأتي في المقام الأول إذ أنه هو الذي يوجه الأشياء ويبني الحضارة.

ولكي يسير المجتمع الإسلامي في طريق الحضارة من جديد، لا بد له أن يلتزم بما تغرسه العقيدة في نفس الإنسان الذي يعتبر القاعدة الأساسية للحضارة، وبالتالي تتوجه جهوده بدافع من عقيدته نحو مقاصد الإنسان وغاياته.

شروط الحضارة:

عرفنا فيما مضى أن مشكلة كل شعب عند مالك هي مشكلة حضارته وأن هذه الحضارة لن تتحقق إلا بشروط معينة تمكن المجتمع من الصعود من طور الغريزة إلى طور الحضارة من خلال تركيب مبدع بين الإنسان والتراب والوقت تقوم فيه الفكرة الدينية بدور المركب للحضارة. كما عرفنا بأن الوسيلة إلى الحضارة ممكنة ما دامت لدينا فكرة دينية تقوم بدور المركب للعوامل الثلاثة لتصنع منها الحضارة وفقاً للمبدأ القرآني الخالد **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**[43].

ولكن هل يمكن تحقيق هذا الشرط في العالم الإسلامي المعاصر؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تحمل أي تردد، إذ أن «قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين»[44] وأن تأثير الدين ـ والإسلام بصفة خاصة ـ لا يقتصر على وقت ظهوره فقط، ولكن تأثيره يتم ويتجدد في كل زمان ومكان، ما دام الناس ملتزمين بشروطه وقوانينه وأن العدة الدائمة للحضارة هو رجل الفطرة الذي يتحرك بدافع من العقيدة التي آمن بها نحو الهدف المنشود، إذ أنه «كلما تحرك رجل الفطرة، تحركت معه حضارة في التاريخ»[45].

إن التغيير الذي نحدثه في نفس الفرد هو الشرط الجوهري لكل تحول

---

(43) سورة الرعد آية 11.

(44) مالك بن نبي: شروط النهضة ص 66.

(45) المصدر السابق ص 68.

رشيد، لذلك فإن الاستعمار لا يستطيع أن يفعل شيئاً أمام النفس المتحررة من الذل والهوان، نتيجة تحول نفسي جعلها قادرة على القيام بوظيفتها الاجتماعية. والشرط الثاني يتمثل في علاج المشكلات الأساسية وهي: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت.

ويتم تغيير الإنسان بتوجيهه الدوائر الثلاث الآتية: ـ

(أ) دائرة الثقافة.
(ب) دائرة العمل.
(جـ) دائرة رأس المال.

وذلك بتخطيط واع ومنظم يشخص الغايات قبل تحقيقها ويزرع الأمل في النفوس الطامحة، ويبث روح المبادرة والتضحية والعمل، ويجمع الوسائل في كتلة واحدة، ويربط بين المشاكل بصورة منهجية مما يحقق الوصول إلى الأهداف من أقرب السبل.

في الدائرة الأولى.. دائرة الثقافة يرى مالك أنها نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة وهي بهذا المعنى ذات صلة وثيقة بالتربية، مما يجعله يؤكد التلازم بين الثقافة والحضارة، ويلح على ضرورة التمييز بين الثقافة والعلم، إذ أن الثقافة ليست علماً يتعلمه الإنسان ولكنها محيط يعيش فيه، وهي علاقة معنوية بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في المجتمع»[46] وهي أيضاً التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: «الأخلاق، والذوق الجمالي، والمنطق العملي والصناعة أو التوجيه الفني أو الدعامة التقنية، كما تعني الثقافة» توجيها لطاقات الفرد، لتحقيق بنائه في الداخل... ولتحقيق مكانته في المجتمع بانسجام تلك المصلحة مع مصلحة المجتمع[47] كما تعني تعلم الحضارة «أعني استخدام جميع ملكاتنا الضميرية والعملية في عالم الأشخاص»[48].

---

(46) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص 64.
(47) مالك بن نبي: تأملات في المجتمع العربي ص 23.
(48) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 122.

إن الشرط الأول يكمن في تغيير النفس الذي يجعل لها القدرة على تجاوز الواقع، ولكن هذا التغيير لا يتم عن طريق علم الكلام بل عن طريق علم آخر يمكن أن نسميه «تجديد الإيمان» يهدف إلى إيحاء الدافع الداخلي في نفوس الناس المتعطشة إلى «انتفاضة القلب» حتى تنتصر على ما أصابها من خمود واكتنف حياتها من ركود، وتنطلق طاقاتها الأخلاقية لبناء المجتمع.

ومن هنا فإن حركة النهضة يجب أن تهتم بتغيير النفوس أولاً، وأن تترجم فكرة الوظيفة الاجتماعية للدين إلى لغة الواقع، ولا تقتصر على إثارة المشكلة من جانبها العقلي فقط، وذلك يقتضي منها أن تواجه مشكلة الثقافة في أصولها.

إن الواجب يقتضي من العالم الإسلامي أن يستكمل عوامل يقظته، ويسير بخطى حثيثة نحو بناء الحضارة بطريقة علمية منظمة، وليس بأسلوب فوضوي، مدركاً بأن «الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفقة، ولا مظاهر خلابة.. بل هي جوهر ينتظم جميع أشيائها وأفكارها وروحها ومظاهرها»[49] إن المجتمع الإسلامي المعاصر في حاجة إلى إعادة تنظيم لطاقته الحيوية وتوجيهها بحيث يوحي تعليم القرآن الكريم «من جديد إلى الضمير المسلم الحقيقة القرآنية» كما يجب تحديد رسالة المسلم في العالم حتى يحتفظ باستقلاله الأخلاقي، وبذلك يستطيع أن ينشىء وسطه الخاص شيئاً فشيئاً وبالتالي يصبح قادراً على تغيير الظروف الخارجية والتأثير عليها.

ولكي يثبت المسلم حضوره ويستأنف دوره الحضاري، يدعو مالك إلى ضرورة السير في اتجاه التاريخ، واستغلال الظروف السانحة حتى يؤدي رسالته وأن يقدم المبررات الجديدة التي تتطلع إليها النفوس القلقة، وذلك يتطلب منه أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة حتى يصبح قادراً على القيام بهذا الدور، أي أن تكون له (إرادة حضارية) حتى يحقق ما يهدف إليه من مثل وقيم سامية، وأن يقدم الإسلام إلى العالم كحقيقة صادقة وصحيحة من خلال نماذج حية يراها أولئك الذين نتوجه إليهم بالدعوة إلى الإسلام، فعلى المسلمين أن يعملوا على

(49) مالك بن نبي: شروط النهضة ص 155.

ترجمة «قيم الإسلام الروحية إلى قيم اجتماعية»[50] وأن تظهر الأخلاق الإسلامية في نماذج إنسانية حية تكون مثالاً لما دعا إليه الإسلام، ولذلك فإن على العالم الإسلامي أن يهتم بقضية توجيه الإنسان «حتى يحقق إيجابية الفرد وإيجابية المجتمع الذي ينتسب إليه»[51] وبذلك يكون قد حقق الشروط اللازمة لبناء الحضارة واستأنف دوره الكبير في حمل الأمانة وتبليغ الرسالة.:. رسالة الحق والخير والسلام.

والحمد لله أولاً وآخراً..

---

(50) مالك بن نبي: فكرة الافريقية الآسيوية ص 172.

(51) المصدر السابق ص 275.